مستقر الشمس : زماني أم مكاني؟

علي بن سالم الرواحي

عزيزي القارئ، لا شك أن للشمس كسائر الأشياء مستقراً تؤول إليه أو تمشي عليه بغير اضطراب أو تضعضع، فالأول يسمى بالاستقرار الزماني بمعنى أنها ستتوقف في زمن يعلمه الله سبحانه وحده، والثاني يسمى بالاستقرار المكاني بمعنى انضباطها في مسار معين وجريان خاص، تحت العرش، وينتج من ذلك انضباط المشارق والمغارب، وعدد كل منهما حوالي٣٦٠، على عدد أيام السنة الشمسية، لكل يوم مشرق ومغرب في الموقع الواحد من الكرة الأرضية، حتى إذا أتمت آخر مشرق وآخر مغرب عادت إلى أولهما، وهذا الجريان للشمس مع مجموعتها- كواكبها مع الأقمار-، يتوافق مع حركة نجوم مجرة درب التبانة، وذلك في نسق عجيب بحيث لا تصادم بين الاجرام، ولا تخالط بين الأفلاك، فكل جرم بفلكه الخاص، مما يستحيل معه القول إنه صدفة مجردة، بل يؤكد أنه تقدير من الله سبحانه وتعالى، قال سبحانه: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) (يس).

لا ريب أن الشمس تبث طاقتها الإشعاعية والحرارية من خلال التفاعلات النووية الاندماجية الحاصلة فيها، حيث يُستهلك الهيدروجين لإنتاج غاز الهليوم، وهو غاز خامل جداً، وبمرور الوقت ويقدر بملايين المؤلفة من السنين، ينفد غاز الهيدروجين ويطغى غاز الهليوم، وتتوقف التفاعلات الكيميائية والنووية ويطرأ على الشمس تحول طوري كما هو معروف في حياة النجوم، فتتحول إلى قزم أبيض ثم إلى ثقب أسود والعياذ بالله، وهذا ما يؤيد ويفسر استقرار الشمس الزماني الذي تهوي فيه وهو ما يسمى بالإنجليزية (SOLAR APEX) والذي اثبته العلم وبالتالي الاعجازيون، ويقع بـ ١٠٠ درجة غرب نجم النسر الواقع أو بالانجليزية فيجا(VEGA)، يؤيده ما فسر بعض المفسرين قوله تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى) (الرعد:٢)، أي إلى أجل هو يوم القيامة.

بيد أن هناك عقبة أمام الإعجازيين وهو ما ذكر بعض المفسرين أن المستقر هو السنة الشمسية للشمس، والشهر القمري للقمر، بمعنى أنه إذا بلغ كل منهما أقصاه عاد إلى أدناه، ويؤكد ذلك أن الشمس لا تموت إلا بعد آلاف الملايين من السنوات، وهو ما يجعلها تتجاوز مستقرها الزماني، وبتعبير آخر: لا تهوي الشمس في ذلك المستقر(SOLAR APEX)

ثم أن في الآية مغزى آخر يدل على الاستقرار المكاني ماثلا في قوله سبحانه (ذلك تقدير العزيز العليم) وهو ذلك التقدير يكون للشمس في حياتها الدنيوية، وهي محل الغيبيات الذي يعلم الله وحده حقيقتها، بينما تتجلي يوم القيامة من الغيوب ما شاء الله لها أن تتجلي أمام المخلوقين.

وثمت قول آخر يضاف إلى الاستقرارين وهو أن المستقر أمر غيبي، وهذا القول يجعلنا لا نخوض أساسًا فيه، ونخرج بانفسنا من الخلاف.

وثمة قول رابع مأخوذ من قراءة ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وهي (لا مستقر لها) أي هي تتحرك باستمرار بلا استقرار لها ولا سكون أو توقف.

بقى لنا أن نتعرض لدلالة رواية أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] (رواه البخاري)، فلا ريب أن كل مخلوق واقع تحت العرش، فالسموات السبع فوقها الجنة، وأعلى الجنة الفردوس، وهي أوسطها وسقفها عرش الرحمن، وتحتمل الرواية للاستقرار الزماني، لكن أثبتت رواية أبي ذر الأخرى بأنه الاستقرار المكاني، قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ﴾ [يس: ٣٨] لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ(رواه البخاري)

والتعبير بالسجود تشبيه تمثيلي وجهه الخضوع التام لله جل جلاله في مسيرة الشيءالدنيوية.

إذاً فالإعجازيون بنوا على الاكتشاف العلمي الجديد للاستقرار وهو ليس مقطوعا به حيث إن العلم نفسه أثبت الاستقرار المكاني بل هو معهود به منذ زمن بعيد، لكن يبقى ما قال هؤلاء الاعجازيون على وجه من الصحة مدعوما بالاكتشاف العلمي، ومع ذلك فالأحسن أن يُسمّى بالتفسير العلمي عوضا عن الاعجاز العلمي لعدم قطعيته، والله يحدث في كونه ما يشاء من الغيبيات ليكون من المشهودات.

وأنا شخصياً أميل إلى القول بالاستقرار المكاني لأن فيه كثيراً من نعم الله علينا من ضوئها وحرارتها واتزان الأرض في معمعتها، وتفعيلها لعمليات التمثيل الضوئي، ويُحسَب منها السنوات والشهور، وساعات اليوم، ويؤيد ذلك أن الآية الكريمة السابقة معقبة بقوله تعالى: (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) (يس)، فذكر منازل الشمس المشارق والمغارب في أكثر من مناسبة مع ذكر منازل القمر، والله ولي التوفيق.